القسم الخامس

متفرقات من نوادر العشاق

نصيب وزينب

قال الضحاك بن عثمان الخزامى: خرجت آخر الحج فنزلت بخيمة الإيواء على امرأة فأعجبنى ما رأيت من حسنها، فتمثلت بقول نصيب:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركبُ ... وقل إن تمل فما ملك القلبُ
وقل فى تجنيها لك الذنب إنما ... عتابك من عاتبت فيما له ذنب
خليلىّ من كعب ألما هديتما ... بزينب لا يفقدكما أبدًا كعب
وقولا لها ما فى البعاد لدى الهوى ... بعادٌ وما فيه لصدع النوى شعب
فمن شاء رام الصرم أو قال ظالمًا ... لصاحبه ذنب وليس له ذنب

فلما سمعت هذه الأبيات قالت: يا فتى أتعرف قائل هذا الشعر، قلت: نعم ذاك نصيب، قالت: نعم هو ذاك، أفتعرف زينب، قلت: لا، قالت: أنا والله زينب، قلت: فحياك الله. قالت قد خرج نصيب إلى أمير المؤمنين منذ عام أول ووعدنى بالمجىء هذا اليوم ولعلك لا تبرح حتى تراه، فما لبثت أن رأيت من بعيد قادمًا يخب به الحصان خبًا، فقالت: أرى ذلك الفارس أنى أحسبه إياه، ثم أقبل الراكب من جهة الخيمة فإذا هو نصيب، فنزل وسلم علىّ وجلس إلى ناحية وسلم عليها وساءلها وساءلته، فجعل ينشدها من حديث شعره ولطيف نظمه، فقلت فى نفسى: عاشقان أطالا التنائى فلا بد لهما من خلوة يرتاحان إليها، فقمت إلى راحلتى أشد عليها، فقال لى: على رسلك أنا معك، فجلست حتى نهض ونهضت معه، فتسايرنا ساعة ثم التفت إلىّ فقال: قلت فى نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد لأحدهما من حاجة إلى صاحبه، قلت: نعم هو ذاك، قال: لا ورب الورى ما جلست منها مجلسًا قط أقرب من مجلسى الذى رأيت ولم يك بيننا غير الشرف والعفاف.

ابنة والى مصر وأحد عمال أبيها

قال الحسين بن زيد: ولى بديار مصر والٍ فوجد على بعض عماله فحبسه وقيده، فأشرفت عليه ابنة الوالى فهويته، فكتبت إليه وقد كان نظر إليها:

أيهـــا الرامى بعينيـ ـه وفى الطرف الحتوف
إن ترد وصلاً فقـد أمـ ـكنـك الظبى الألوف

فأجابها الفتى:

إن ترينى زانى العيـ ـنين فالقلب عفيف
ليس إلا النظر الفـا تر والشعر الظريف

فكتبت إليه:

قد أردناك على عشـ ـقك إنسانًا عفيفًا
فتأبيـت فـلا زلـ ـت لقيديك حليفًا

فأجابها الفتى:

غير أنى خفت ربًا كان بى برًا لطيفا

فذاع الشعر وبلغ الخبر الوالى، فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه.

* * *

غورك المجنون وإسحاق بن إبراهيم

قال إسحاق بن إبراهيم: رأيت غورك يومًا خارجًا من الحمام والصبيان يؤذونه، فقلت: ما خبرك يا أبا محمد؟ قال: قد آذانى هؤلاء الصبيان، أما يكفينى ما أنا فيه من العشق والجنون، قلت: ما أظنك مجنونًا، قال: بلى والله وبى عشق شديد، قلت: هل قلت فى عشقك وجنونك شيئًا، قال: نعم وأنشد:

جنـون وعشق ذا يروح وذا يغـدو فهذا له حـدٌّ وهـذا له حـدُّ
هما استوطنا جسمى وقلبى كلاهما فلم يبق لى قلـب صحيح ولا جلد
وقـد سكنا تحـت الحشا وتحالفا على مهجتى ألاَّ يفارقهـا الجهـد
فأى طبيـب يستطيـع بحيـلةٍ يعالج مـن داءين مـا منهما بد

عزة الميلاء والناسك عند أبى جعفر

بلغ عبد الله بن جعفر خبر جارية بديعة الصوت مع نخاس فى المدينة فبعث إليه وابتاعها منه، فجاءه يومًا ناسك من المدينة كان يتردد إليه غالبًا فسمع الجارية تغنى: «بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا»، فما كاد يسمع صوتها حتى خرّ مغشيًا عليه، فأمر ابن جعفر فنضح على وجهه، فلما أفاق قال له :أكلّ هذا بلغ بك عشقها، قال وما خفى عليك أكثر، قال: أفتعرف لمن هذا الصوت، قال: لا، قال: هو لعزة الميلاء أوتحب أن تسمعه منها، قال: قد رأيت ما نالنى حين سمعته من غيرها وأنا لا أعرفها فكيف يكون حالى إن سمعته منها وأنا لا أقدر على ملكها، قال: أفتعرفها إن رأيتها، قال: أو أعرف غيرها، فأمر بها فخرجت، وقال: خذها فهى لك والله، فقبل الرجل يديه، وقال: أنمت عينى وأحييت نفسى وتركتنى أعيش بين قومى ورددت إلىّ عقلى أيها الأمير.

* * *

شهاب الدين وفاطمة ابنة الخشاب

كتب شهاب الدين بن فضل الله قاضى القضاة يومًا إلى فاطمة ابنة الخشاب يقول:

هل ينفع المشتاق قرب الدارِ ... والوصل ممتنعٌ مع الزوارِ
يا نازلين بمهجتى وديارهم ... من ناظرىّ بمطمح الأنظار
هيجتم شجنى فعدت إلى الصبا ... من بعد ما وخط المشيب عذارى

فأجابته فاطمة بهذين البيتين:

إن كان غركم جمال إزار ... فالقبح فى تلك المحاسن وارِ
لا تحسبوا أنى أماثل شعركم ... أنى يقاس جداول ببحار

فلما بلغا شهاب الدين وجدهما ألفاظًا درية بمعانٍ عبقرية فاعتبرها وأجلها وصار يكاتبها مكاتبة العلماء.

ابن دائب وجارية أخته

عشق ابن دائب جارية كانت عند أخته، وكان سبب عشقه إياها أنه رآها فى منامه فأصبح مستطاراً عقله ساهيًا قلبه، فلم يزل كذلك حينًا لا يزداد إلا حبًا ووجداً حتى أنكر ذلك أهله وأعلموا عمه عما كان له، فسأله عن حاله، فلم يقر له بشىء، وقال: علة أجدها فى جسمى، فدعا له أطباء الروم، فعالجوه بضروب من العلاج، فلم يزده علاجهم له إلا شراً وامتنع عن الطعام والكلام، فلما رأوا ذلك منه أجمعوا على أن يوكلوا به امرأة فتسقيه الخمر حتى يبلغ منه دون السكر، فإن ذلك يدعوه إلى الكلام والكشف عما فى نفسه، فقر رأيهم على ذلك، وأعلموا عمه ما اتفقوا عليه، فبعث إليه بقينة يقال لها حمامة ووكل به حاضنة كانت له، فلما أن شرب الفتى غنت الجارية أمامه، فأنشأ يقول:

دعونى لما بى وانهضوا لكلاءة ... من الله قد أيقنت أن لست باقيا
وأن قد دنا موتى وحانت منيتى ... وقد جلبت عينى علىّ الدواهيا
أموت بشوقٍ فى فؤادى مبرح ... فيا ويح نفسى من به مثل ما بيا

فسارت القينة والحاضنة إلى عمه فأخبرتاه الخبر، فاشتدت له رحمته فتلطف فى دس جارية من جواريه إليه، وكانت ذات أدب وعقل فلم تزل تستخرج ما فى قلبه، حتى باح لها بالذى فى نفسه، فصارت السفير فيما بينه وبين الجارية، وكثرت ما بينهما الكتب، وعلمت أخته بذلك فانتشر الخبر فوهبتها له فبرأ من علته وأقام على أحسن حال.

* * *

أبو ريحانة وحاملة القربة

قال الأصمعى: مررت بالبصرة بدار الزبير بن العوام فإذا أنا بشيخ من ولد الزبير يكنى أبا ريحانة ما عليه إلا شملة تستره، فسلمت عليه وجلست إليه أحدثه، فبينا أنا كذلك إذ طلعت علينا جارية حسناء تحمل قربة، فلما نظرها لم يتمالك أن

قام إليها ثم قال: أيتها الفتاة غنى لى صوتًا، فقالت: إن موالىَّ أعجلونى، قال: لا بد من ذلك، قالت: أما والقربة على رأسى فلا، قال: فأنا أحملها، فأخذ القربة وحملها على عنقه، واندفعت الجارية فغنت:

فؤادى أسير لا يفك ومهجتى ... تقضى وأحزانى عليك تطولُ
ولى مهجة قرحى لطول اشتياقها ... إليك وأجفانى عليك همول
كفى حزنًا أنى أموت صبابة ... بدائى وأنصارى عليك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت بعلة ... فأغنيت علاتى فكيف أقول

فطرب الرجل وصرخ صرخة وضرب بالقربة الأرض فشقها، فقامت الجارية تبكى وقالت: ما هذا جزائى منك يا أبا ريحانة، أسعفتك بحاجتك وعرضتنى لما أكره من موالى، قال: لا تغتمى فإن المصيبة على دخلت دونك وأخذ بيدها فتبعته إلى سوق فنزع عنه الشملة مستترًا بيديه وباعها واشترى بثمنها قربة دفعها إليها، فاجتاز به رجل من الطالبية، فلما نظر إليه وإلى حالته عرف قصته فقال: يا أبا ريحانة أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦]، فقال: لا يا صاحبى ولكنى من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧، ١٨]، فضحك منه العلوى وأمر له بألف درهم وخلعة.

* * *

عريب واليزيدى

قال اليزيدى: خرجنا مع المأمون إلى بلاد الروم فرأيت عريب فى هودج، فلما رأتنى قالت: يا يزيدى أنشدنى شعرًا، فقلت: نعم حتى أسمع فيه لحنًا، فأنشدتها:

ماذا بقلبى من دوام الخفقِ ... إذا رأيت لمعـان البرقِ
من قبل الأردن أو دمشـق ... لأن من أهوى بذاك الأفق

فتنفست تنفسًا ظننت أن ضلوعها قد تقصفت منه فقلت لها: هذا والله تنفس عاشق، فقالت: اسكت يا عاجز أنا عاشق بل أنا معشوقة فى كل ناد، والله لقد نظرت نظرة مريبة فى ذا المجلس.

عريب ومحمد بن حامد

وقع بين عريب وبين محمد بن حامد خصام وكان يجد بها وجداً مفرطًا كادا يحرجان من شرهما إلى القطيعة، وكان فى قلبها منه كما لها عنده من الحب، فلقيته يومًا فقالت له: كيف قلبك يا محمد، قال: أشقى والله مما كان وأشد لوعة، فقالت: استبدل بديلاً، فقال لها لو كانت البلوى بالخيال لفعلت، فقالت: لقد طال إذن تعبك، فقال: وما يكون أصبر مكرهًا أما سمعت قول العباس بن الأحنف:

تعب يكون مع الرجاء بذى الهوى ... خير له من راحةٍ فى الياسِ

لولا كرامتكم لما عاتبتكم ... ولكنتم عندى كبعض الناس

فلما سمعت ذلك ذرفت عيناها واعتذرت وعاتبته واصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه من صدق المودة وحسن المعاشرة.

وكتبت عريب يومًا إلى ابن عامر تستزيره، فأرسل إليها يقول: إنى أخاف على نفسى، فكتبت إليه:

إذا كنت تحذر ما تحذرُ ... وتزعم أنك لا تجسر

فمالى أقيم على صبوتى ... ويوم لقائك لا يقدر

فلما قرأ الرقعة سار إليها من وقته وأرسل إليها يعاتبها فى شىء فكتبت إليه تعتذر، فلم يقبل، فكتبت إليه هذين البيتين:

تبينت عذرى وما تعذر ... وأبليت جسمى وما تشعرُ

ألفت السرور وخليتنى ... ودمعى من العين لا يفتر

فلما اطلع على البيتين ذرفت عيناه وسعى إليها مستسمحًا ومستجديًا عفوها عما وقع منه.

* * *

سر عاشقة

قال أحدهم: دعانى فتى من أهل المدينة إلى غادة حسناء، فلما دخلنا عليها إذا هى أحسن الناس وجهًا وإذا بها انخراط وجه وسهو وسكوت، فجعلنا نبسطها بالمزاح والكلام ويمنعها من ذلك ما تكتمه، فقلت فى نفسى والله إن بها لهيامًا وطائفًا من الحب، فأقبلت عليها فقلت: بالله تصدقينى ما الذى بك، فقالت: برح الذكر ودوام الفكر وخلو النهار وتشوق إلى من سار والذى يرى ما وصفت لك، فإن كنت ذا أدب صرمت العتب عن ذى الكرب واجتهدت فى الطلب لدواء من قد أشرف على العطب كما قال الشاعر:

سيوردنى التذكار حوض المهالك ... فلست لتذكار الحبيب بتارك
أبى الله إلا أن أموت صبابةً ... ولست لما يقضى الإله بمالك
كأن بقلبى حين شطت بى النوى ... وخلفنى فردًا صدور النيازك
تقطعت الأخبار بينى وبينه ... لبعد النوى واستد سبل المسالك

قال فوالله لقد خفت على عقلى أن تسلبه بلفظها الحسن فقلت: جعلنى الله فداءك وهو الذى صيرك إلى ما أرى يستحق هذا منك، فوالله إن الناس لكثير فلو تسليت بغيره فلعل ما بك يسكن أو يخف فقد قال أحدهم:

صبرت على اللذات لما تولت ... وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حين يجعلها الفتى ... فإن أطمعت تاقت وإلا تسلت

فأقبلت علىَّ فقالت: والله لقد رمت ذلك فكنت كما قال قيس بن الملوح:

ولما أبى إلا جماحًا فؤاده ... ولم يسل عن ليلى بمالٍ ولا أهلِ
تسلى بأخرى غيرها فإذا التى ... تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

فأسكتتنى والله بتوانر حججها عن محاورتها، وما رأيت كمنطقها ولا كشكلها وأدبها وكمال خلقها

* * *

بشار بن برد ومحبوبته عبدة

بينما كان بشار بن برد فى مجلسه ذات يوم وكان النساء يحضرنه إذ سمع كلام امرأة أشجاه نغمها وحسن ألفاظها، فدعا بغلامه فقال: إنى قد علقت امرأة فإذا تكلمت فانظر من هى واعرفها فإذا انقضى المجلس وانصرف أهله فاتبعها وأعلمها أنى لها محب وأنشدها هذه الأبيات وعرفها أنى قلتها فيها:

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم ... الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
ما كنت أول مشغوف بجارية ... يلقى بلقيانها روحًا وريحانا
يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

فأبلغها الغلام الأبيات فهشت لها وكانت تزوره مع نسوة يصحبنها فيأكلن عنده ويشربن وينصرفن بعد أن يحدثها وينشدها ولا تطمعه فى نفسها، فقال فيها:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها ... قلبى فأضحى به من حبها أثرُ
إنى ولم ترها تهذى فقلت لهم ... إن الفؤاد يرى ما لم ير البصر
أصبحت كالحائم الحران مجتنبًا ... لم يقض وردًا ولا يرجى له صدر

فصار بعض الأصدقاء يلومونه فى حبها فأنشد يقول:

يزهدنى فى حب عبدة معشر ... قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا ... وألف بين العشق والعاشق الصب

* * *

ما سمعه ابن عثام

قال حبيب الواسطى: دخلت يومًا على علىّ بن عثام فوجدته باكيًا حزينًا ذاهب النفس، فأنكرت ذلك وسألته عما دهاه، فقال: اعلم أنى مررت بالخريبة فرأيت مجنونًا مصفدًا فى الحديد يتمرغ فى التراب ويقول:

ألا ليت أن الحب يعشق مرة فيعرف ماذا كان بالناس يصنعُ
يقولون فز بالصبر إنك هالك وللصبر منى إن أحاوله أجزع

* * *

غورك المجنون

قال أبو بكر محمد بن فرحان: لقيت غورك المجنون وفى عنقه حبل قصير والصبيان يقودونه، فقال لى: يا أبا بكر بمَ يعذب الله أهل جهنم؟ قلت: بأشد العذاب، قال: صف لى، قلت: ومن يصف عذاب رب العالمين، قال: أنا فى أشد من عذابه، ثم رفع ثوبه فإذا هو ناحل الجسم دقيق العظم فقال لى:

انظر إلى مـــا فعل الحب لم يبق لى جسم ولا قلب
أنحل جسمى حب من لم يزل من شأنها الهجران والعتب
ما كان أغنانى عن حب من من دونهـا الأستار والحجب

* * *

أبو الأسدى والشاب

قال أبو الأسدى: دخلت دير هرقل فوجدت شابًا حسن الهيئة مكبلاً بالحديد فسألته عن أمره، فأنشد:

نظرت إليهـا فاستحلت بنظرتى دمى ودمى غـالٍ فأرخصـه الحبُ
وغاليت فى حبى لهـا ورأيت دمى رخيصًا فمن هذين داخلها العجب

* * *

أبو غصن الأعرابى وذات الوجه الصقيل

قال أبو الغصن الأعرابى: خرجت حاجًا فلما مررت بقباء سمعت قومًا ينادون: الصقيل الصقيل، فنظرت فإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل، فلما رميناها

بالحدق ألقت البرقع عن وجهها وتبسمت، فوالله ما رأيت أحسن منها، ثم أنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ
رأيت الذى لا كله أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابر

* * *

ابن أبى داود والجارية

قال سلم بن ربيع: اعترض ابن أبى داود جارية فأعجبته فقال:

ماذا تقولين فى من شفه سقم من طول حبك حتى صار حيرانا

فأجابته:

إذا رأينا محبًا قد أضرَّ به جهد الصبابة أولياه إحسانا

* * *

الحارث بن زهير ولبنى

خرج ذات يوم الحارث بن زهير مع خلان له إلى الصيد والقنص فأوسع بهم فى عرض الفلاة حتى وصلوا إلى اليعمودية فلاحت له غزالة فى ذلك البر فجد فى أثرها، فانتهى به المسير إلى غدير كبير على شاطئه جماعة من البنات الحسان وبينهنَّ جارية بديعة الجمال كأنها هلال جمعت بين لطافة القد وحسن الجيد والاعتدال وكانت تدعى لبنى بنت المعتمد، فلما رآها الحارث غلب عليه العشق والجوى واستولى عليه سلطان الهوى، وكانت الغزالة قد دخلت بين البنات فانثنى نحوهنَّ وسلم ثم قال بصوت لطيف دعى صيدى يا بنت الكرام حتى آخذه وأذهب، فقالت له: خلى عنه أيها الشاب فقد استجار بنا وأعطيناه عهدنا وزمامنا، وكانت لبنى تتكلم بقلب يخفق غرامًا وصوت يتقطع لوعة وهيامًا، ثم قالت له: ما اسمك الكريم؟ قال: الحارث بن زهير سيد بنى عبس، فقالت: نعم الفتى، وبعد ساعة من الزمان ودعهنَّ وسار وقد اشتعل فؤاده من فرط الحب بلهيب

النار، ولما زاد به الشوق باح لسانه بالشعر فأنشد:

سلامى على الوادى ومن حل دونه ... فقد حملونى فوق ما أنا حامله
مررت به أبغى من الصيد ظبية ... فعدت وقد صادت فؤادى حبائله
وأبقيت قلبى عند سكان أرضه ... وجسمى على نار الهوى ومراجله
فإن يكُ جسمى قد مضى نحو أهله ... فإن فؤادى عندكم وبلابله

وما زال يقطع البيداء حتى وصل البيت مساءً، فبات ليله أرقًا بين السهاد وتباريح الغرام، ولما أصبح الصباح أخبر خادمته بما جرى وما أصبح فيه من قاتل الحب ووكل إليها تدبير الأمر، فقالت: سمعًا وطاعة وذهبت إلى أحيائها فسألت عنها فدلوها عليها فلما رأتها هدأ بالها وحدثتها سراً بحديث الحارث وما هو فيه من الحب والغرام، فلما سمعت لبنى كلامها أعلمتها بوجدها وغرامها وقالت لها إن رأيت أن تجمعينى به الليلة على شاطئ الغدير، فقالت: حبًا وكرامة وذهبت فأعلمت الحارث فكاد يطير من الفرح ولما أمسى المساء سار من فوره إلى الغدير فلما رآها زاد حبه وهاجت أشجانه فأنشد:

أصبحت يا لبنى أسير هواكِ ... والقلب يخفق والمتيم باكِ
قد بت أسهى من هواك ساهراً ... أرعى النجوم مراقب الأفلاك
أصبحت يا لبنى نحيلاً مغرمًا ... من فرط حبك فامننى بلقاك
لولاك يا لبنى لما أمسى الهوى ... بى حاكمًا متصرفًا لولاك
قد جئت أصطاد الظبا فى أرضكم ... فاصطاد قلبى الكحل من عيناك
فارعىْ عهودى واحفظى شرع الهوى ... وتيقنى أنى قتيل هواك
منى السلام عليك يا شمس الضحى ... فلقد رمانى الحب بالإشراك
وابقى ودومى واسلمى وتعطفى ... وارعى العهود فمهجتى ترعاك

فما زالا بين شكوى ونجوى إلى أن أصبح الصباح فافترقا متعاهدين على الحب والولاء، وداما على هذه الحال من الاجتماع وبث الأشواق فى ذاك المكان إلى ذات يوم ذهب الحارث فلم ير أحداً فذهل غاية الانذهال وارتاب فى أمر لبنى فسأل عن السبب فقيل له إنهم ساروا إلى بلدة قريبة، فأرسل يسأل عنها ليعلم ما عندها وما يكنه فؤادها، فكتبت له إن ذلك ما كان إلا رغمًا عنها وأنها قريبًا تعود إليه، فلما بلغ الحارث ذاك الكتاب وقرأ ما به هدأ باله وصار ينتظر لقاء الحبيب، فلما

اجتمعت به لبنى خفق فؤادها وتنهدت وباحت بما عندها فأنشدت:

لو علمنا مجيئكم لفرشنا مهج القلب مع سواد العيونِ
وبسطنا خدودنا للقاكم ليكون المسير فوق الجفونِ

وداما على هذا الحب إلى آخر حياتهما.

* * *

ذو الرمة وعصمة بن عبد الملك

قال عصمة بن عبد الملك: ركبت مع ذى الرمة وسرنا حتى أشرفنا على بيوت الحى وإذا ببيت مية ناحية فعزمت ذا الرمة فعرضن النساء إلى مية، وجئنا فدنونا وسلمنا ثم قعدنا نتحدث فإذا هى جارية أملود واردة الشعر بيضاء يغمرها صفرة وعليها ثوب أصفر وطاق أخضر، فقلن: أنشدنا يا ذا الرمة، فقال: أنشدهن يا عصمة فأنشدتهنّ:

نظرت إلى أظعان مى كأنها ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه
فأعربت العينان والصدر كاتمٌ بمخرورق نمت عليه سواكبه
بكى وامق حال الفراق ولم يحل حوائلها أسرارها ومعائبه

فقالت ظريفة منهنّ: لكن الآن فليحل، فنظرت إلىّ مية متكرهة، ثم مضيت فى القصيدة حتى انتهيت إلى قوله:

إذا سرحت من حب مى سوارح على القلب وافته جميعًا غرائبه

فقالت الظريفة: قتلته قاتلك الله، قالت مية: ما أصحه وهنيئًا له. فتنفس ذو الرمة تنفسًا ظننت معه أن فؤاده قد انصدع، ومضيت فيه حتى انتهيت إلى قوله:

وقد حلفت بالله مية ما الذى أقول لها إلا الذى أنا كاذبه
إذن فرمانى الله من حيث لا أرى ولا زال فى أرضى عدوٌّ أحاربه

فالتفتت إليه، فقالت: خف عواقب الله، ومضيت فى القصيدة حتى انتهيت إلى قوله:

إذا راجعتك القول مية أو بدا لك الوجه منها أو نضا الثوب سالبه
فيا لك من خدّ أثيلٍ ومنطقٍ رخيمٍ ومن خلقٍ تعلل جاذبه

فقالت الظريفة: أما هذه فقد راجعتك وقد بدا لك الوجه منها فمن لك بأن ينصف الدرع سالبه. فالتفتت مية إليها فقالت: قاتلك الله ما أنكر ما تجيبين به، ثم تحدثن ساعة فقالت الظريفة للنساء: إن لهذين شأنًا. ثم سارت بنا فلما وصلنا الأبيات دخلت بذى الرمة فلبثت أنتظر فإذا به قادمًا ومعه قلائد لطيفة حلى بها نصل سيفه. فسألته عنها. فقال: هى منها والله.

* * *

أبو عثيرة الخياط وأبو محمد الدمشقى

قال أبو محمد الدمشقى: مررت ذات ليلة أيام فتنة المستعين والقمر يزهر بأحياء الشام فإذا أنا بشيخ جليل موشح فى إزار أحمر فقلت له: ما اسمك الكريم؟ قال: أبو عثيرة الخياط شهدت حروب ابن زبيدة كلها وحاربت الفتيان فى غاية كل ميدان واعترف لى كل فاتك وأذعن لى كل شاطر ونزلت تلك الدار عشرين سنة وأومأ إلى سجن بغداد. ثم تنفس الصعداء وأنشد:

لى فؤادٌ مستهام ... وجفون لا تنامُ
ودموع آخر الدهر ... على عينى سجامُ
وحبيب كلما خاطبته ... قال سلامُ
فإذا ما قلت زرنى ... قال لى ذاك حرامُ

ثم بكى. فلما أفاق قلت ما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكى ولى حبيب بالبصرة علقته وهو ابن سبع عشرة سنة. ثم غبت عنه ثلاثًا وثلاثين سنة. فلما عيل صبرى خرجت إلى البصرة فطفت فى شوارعها حتى رأيته فما رأيت وجهًا أحسن منظرًا ولا أزهى منه ثم أنشأ يقول:

مردد فى كمده ... معذب فى سهده
خلا به السقم فما ... أسرعه فى جسده
يرحمه لما بدا ... من ضره ذو حسده

ثم ودعنى ومضى.

* * *

أبو الفضل والجارية

قال أبو الفضل: بينما كنت بالطواف أمام الحجر إذ سمعت حنينًا يخرج من بين الأستار وقائلاً يقول:

عفا الله عمن يحفظ الود جهده ولا كان عهد الله للناقض العهد
وضعت على الأستار خدى ليلةً ليجمعنى مع من وضعت له خدى

فرفعت الأستار فإذا جارية منفردة كأنها الشمس تجلت عنها غمامة. فقلت: يا هذه لو سألت الله الجنة مع هذا التصدع والبكاء ما حرمك إياها. فسترت وجهها وقالت: سبحان من خلق فسوى ولم يهتك الولاية والنجوى. أما والله إنى فقيرة إلى رحمة ربى وقد سألته أكبر الأمرين عندى رجاء فضله واتكالاً على عفوه. ثم ولت عنى فعجبت من فصيح منطقها.

❁ ❁ ❁

مسلم بن جندب وجارية

قال مسلم بن جندب: خرجت مع صديق لى إلى العقيق فلقينا نسوة نازلات من العقيق لهنّ جمال وشارة وفيهنّ جارية خضابية العينين. فلما رآها صديقى قال لى: يا بن الكرام دم أبيك والله فى ثيابها فلا تطلب أثرًا بعد عين وأنشد قول أبى مسلم بن جندب.

ألا يا عباد الله هذا أخوكم قتيل فهل منكم له اليوم ثائر
خذوا بدمى إن مت كل مليحة مريضة جفن العين والطرف ساحر

فقالت لى الجارية: أنت ابن جندب. قلت: نعم. قالت: فاغتنم نفسك واحتسب أباك فإن قتيلنا لا يودى وأسيرنا لا يفدى.

❁ ❁ ❁

أبو المهلهل الخزامى ومىّ

قال أبو مهلهل الخزامى: ارتحلت إلى الدهناء فسألت عن مى صاحبة ذى الرمة فدفعت إلى خيمة فيها عجوز هيفاء فسلمت عليها وقلت: أين منزل مى؟ فقالت: ها أنا مى. فقلت: عجبًا من ذى الرمة وكثرة قوله فيك. قالت لا تعجب فإنى سأقوم بعذره. ثم نادت فخرجت من الخيمة جارية ناهدة عليها برقع. فقالت لها: أسفرى فلما أسفرت تحيرت لما رأيت من حسنها وجمالها. فقالت علقنى ذو الرمة وأنا فى سن هذه وكل جديد إلى البلاء قلت عذرته والله وانصرفت.

* * *

بكر بن النطاح والفتاة

قال بكر بن النطاح فى غادة حسناء ألفت الصد والهجران:

ما ضرهـا لو كتبت بالرضى ... فجف جفن العين أو أغمضا
شفاعـة مردودة عندهـا ... فى عاشق يندم لو قـد قضى
يا نفس صبـرًا فاعلمى أنهـا ... تمل منها مثل مـا قـد مضى
لم تمرضِ الأجفـان من قاتلى ... بلحظـة إلا لأن أمرضـا

* * *

ابن الجوزى وزوجته

كان لابن الجوزى زوجة تسمى نسيم الصبا وكان يحبها حبًا شديدًا. فاتفق أن طلقها فحصل له قلق وهيام كاد يشرف به على التلف فحضرت فى بعض الأيام مجلسًا كان فيه فسر بها واستبشر. فحدث أن جاءت امرأتان وجلستا أمامه فحالتا بينه وبينها فأنشد:

أيا جبلى نعمـان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلىّ نسيمها

أنس الوجود ومحبوبته ورد

حكى أنه كان لأحد الوزراء ابنة بديعة فى الحسن والجمال فائقة فى البهجة والكمال ذات عقل وافر وأدب كامل. وكانت تهوى المنادمة وسماع رقائق الأشعار لرقة فؤادها ولطف أخلاقها وظرفها. فبينما كانت يومًا تنظر من شباك قصرها وقع نظرها على شاب نير الوجه ضاحك السن بهى الطلعة حسن الشمائل. فوقع حبه فى قلبها وعدمت صبرها فى هواه فرمته للحال بتفاحة كانت فى يدها. فرفع رأسه فرآها فى شباك القصر كأنها البدر فلم يرنو إليها طرفه إلا وهو بعشقها مشغول الخاطر.

فلما بعد عن القصر سألت جاريتها عن اسمه وكانت تعرفه فقالت لها: إن اسمه أنس الوجود وإنها تعرف مكانه. فكتبت له رقعة شرحت فيها حالها وما عراها من حبه وغرامه، فأخذت الجارية الرقعة وسارت بها إليه فأعطتها له. فلما قرأها كتب فى أسفلها هذه الأبيات:

أعلل قلبى فى الغرام وأكتمُ ... ولكن حالى عن هواى يترجمُ
فلو فاض دمعى قلت جرح بمقلتى ... لئلا يرى حالى العزول فيفهم
وكنت خليًا لست أعرف ما الهوى ... فأصبحت صبًا والفؤاد متيم
رفعت إليكم قصتى أشتكى بها ... غرامى ووجدى كى ترقوا وترحموا
وسطرتها من دمع عينى لعلها ... بما حل بى منكم إليكم تترجم
رعى الله وجهًا بالجمال مبرقعًا ... له البدر عبد والكواكب تخدم
على حسن ذات ما رأيت مثيلها ... ومن ميلها الأغصان عطفًا تعلم
وأسألكم من غير حمل مشقة ... زيارتنا أن الوصال معظم
وهبت لكم روحى عسى تقبلونها ... فلى الوصل من والصدود جهنم

فأخذت الجارية الكتاب وأعطته إلى سيدتها. فلما قرأت ذاك الكتاب هاج منها الوجد والغرام وكتبت له تقول:

يا من تعلق قلبه بجمالنا ... اصبر لعلك فى الهوى تحظى بنا
لما علمنا أن حبك صادقٌ ... وأصاب قلبك ما أصاب فؤادنا

زدناك فوق الوصل وصلاً مثله لكن منع الوصل من حجابنا
وإذا تجلى الليل من فرط الهوى تتوقد النيران فى أحشائنا
وجفت مضاجعنا الجنوب وربما قد برح التبريح فى أجسامنا
الفرض فى شرع الهوى كتم الهوى لا ترفعوا المسبول من أستارنا

فلما فرغت من شعرها طوت الكتاب وأعطته إلى الخادمة. فأخذته وخرجت من عندها. فصادفها الحاجب وقال لها: أين تذهبين. فقالت إلى الحمام وقد انزعجت منه فوقعت منها الورقة دون انتباه. فبينما كان بعض الخدم يمشى من تلك الجهة وقع نظره على الورقة فأخذها وقدمها إلى الوزير فلما قرأها وفهم فحواها هاج منه الغيظ والغضب وجاء إلى بنته ورد لائمًا منددًا. ثم أمر بعض الخدم بإبعادها وأخذ مكانًا لها يكون بعيدًا فى البرية. فلما علمت بذلك زاد منها القلق وكتبت قبل ذهابها هذه الأبيات على باب حجرتها.

بالله يا دار إن مرَّ الحبيب ضحًى مسلمًا بإشارات يحيينا
اهديه منا سلامًا زاكيًا عطرًا لأنه ليس يدرى أين أمسينا
ولست أدرى إلى أين الرحيل بنا لما مضوا بى سريعًا مستخفينا
فى جنح ليل وطير الأيك قد عكفت على الغصون تباكينا وتنعينا
وقال عنها لسان الحال واحربا من التفرق ما بين المحبينا
لما رأيت كؤوس البعد قد ملئت والدهر من صرفها بالقهر يسقينا
مزجتها بجميل الصبر معتذرًا وعنكم الآن ليس الصبر يسلينا

فلما فرغت من شعرها ركبت وساروا بها يقطعون القفار حتى وصلوا إلى مكان منفرد أمام شاطئ نهر فنصبوا لها خيمة هناك ووكلوا بها بعض الخدم. فلما أظلم الظلام تذكرت حالها وكيف فارقت أطلال الحبيب فسكبت العبرات وأنشدت تقول:

جن الظلام وهاج الوجد بالسقم والشوق حرك ما عندى من الألم
ولوعة البين فى الأحشاء قد سكنت والفكر صيرنى فى حالة العدم
والوجد أقلقنى والشوق أحرقنى والدمع باح بسر أى مكتتم
وليس لى حالة فى العشق أعرفها من رق عودى ومن سقمى ومن ألمى
جحيم قلبى من النيران قد سعرت ومن لظى حرها الأكباد فى نقم

ما كنت أملك نفسى أن أودعهم يوم الفراق فيا قهرى ويا ندمى
يا من يبلغهم ما حل بى وكفى أنى صبرت على ما خط بالقلم
أقسمت لا حلت عنهم فى الهوى أبداً بمين شرع الهوى مبرورة القسم
يا ليل سلم على الأحباب مخبرهم واشهد بعلمك أنى فيك لم أنم

أما أنس الوجود فإنه بعد كتابة الأبيات وإرسالها إلى محبوبته ورد الصبر إلى ثانى الأيام فقام وقصد أبياتها. فسأل عنها الخادمة فأعلمته بالخبر وأطلعته على ما كتبت من أبيات على الباب. فلما قرأ تلك الأبيات زاد منه الوجد والقلق وسار فى عرض القفار لا يرتاح إلى سمير ولا يلذ له كلام. إلى أن رأى رجلاً أهداه إلى مكانها. فبينما هو سائر إلى حبيبته وقع نظره على حمام الأيك فهاج منه لاعج الغرام وأنشد:

يا حمام الأيك أقريك السلام يا أخا العشاق من أهل الغرام
إننى أهوى غزالاً أهيفًا لحظه أقطع من حد الحسام
فى الهوى أحرق قلبى والحشا وعلا جسمى نحول وسقام
ولذيذ الزاد قد حرّمتهُ مثل ما حرّمت من طيب المنام
واصطبارى وسلوى رحلا والهوى بالوجد عندى قد أقام
كيف يهنا العيش لى من بعدهم وهم روحى وقصدى والمرام

أما حبيبته ورد فإنها بينما كانت تخطر حول خيامها إذ رأت موكبًا حافلاً من بعد فدنت منه فإذا فى وسطه أمير خطير فلما وقع نظره عليها عجب من رائق جمالها وهاله ما رأى فيها من شدة الضعف والهزال فسألها عن حالها وما ألمّ بها. فأعلمته القصة على التمام وما جرى لها أولاً وآخراً. فرق لها قلبه وبعث فاسترضى أباها وأرسل من يأتى بأنس الوجود. فما مضى إلا القليل حتى صادفوه قريبًا من خيام محبوبته. فلما جاءوا به إليها مالت إليه كغصن البان فضمها إلى صدره وأنشد:

ما أحيلاها ليلات الوفا حيث أمسى لى حبيبى منصفا
نصب السعد لنا أعلامه وشربنا منه كأسًا قد صفا
واجتمعنا وتشاكينا الأسى وليلات تقضت بالجفا
ونسينا ما مضى يا سادتى وعفا الرحمن عما سلفا

وعاشا معًا فى الذّ عيش وأهنأ بال.

دعبل الخزاعى والجارية

قال دعبل الخزاعى: كنت جالسًا بباب الكرخ إذ مرت بى جارية لم أرَ أحسن منها ولا أعدل قدًا وهى تتثنى فى مشيتها وتسبى الناظرين بتثنيها. فلما وقع بصرى عليها افتتنت بها وارتجف فؤادى وآنست من قلبى ارتحالاً فأنشدت معرضًا بهذا البيت:

دموع عينى بها انقضاضُ ونوم جفنى به انقبـاضُ

فنظرت إلىّ واستدارت بوجهها وأجابتنى بسرعة بهذا البيت:

وذا قليـل لمن دعتـه بلحظها الأعين المراضُ

فأدهشتنى بسرعة جوابها وحسن منطقها فأنشدتها ثانيًا هذا البيت:

فهل لمولاتى عطف قلبٍ على الذى دمعه مغـاضُ

فأجابتنى بسرعة من غير توقف بهذا البيت:

إن كنت تهوى الوداد منا فالود مـا بيننـا قراضُ

فما دخل أذنى قط أحلى من كلامها ولا رأيت أبهج من وجهها فعدلت بالشعر عن القافية امتحانًا لها وعجبًا بكلامها. فقلت لها هذا البيت:

أترى الزمـان يسرنا بتلاق ويضم مشتاقًا إلى مشتاقِ

فتبسمت فما رأيت أحسن من فمها ولا أحلى من ثغرها وأجابتنى بسرعة من غير توقف بهذا البيت:

ما للزمان وللتحكم بيننا أنت الزمان فسرنا بتلاقِ

* * *

بدور بنت الجوهرى وجبير الشيبانى

قال على بن منصور الخليعى: بينما كنت سائرًا فى البصرة إذا بباب كبير له حلقتان من النحاس فوقفت أتفرج على هذا المكان. فبينما أنا واقف إذ سمعت صوت أنين ناشئ عن قلب حزين فرفعت الستر قليلاً قليلاً وإذا أنا بجارية بيضاء كأنها البدر إذا بدر فى ليلة أربعة عشر بحاجبين مقرونين وجفنين ناعسين وشفتين

رقيقتين وفم كأنه خاتم سليمان وقد حارت أنواع الجمال بما يفتن النساء والرجال. فلما رأتنى ناظرًا إليها من خلال الستارة مالت إلى جارية لها وقالت: انظرى من بالباب. فقامت الجارية وأتت إلىّ وقالت: ما سبب وقوفك هنا. قلت: عطش ألمّ بى فأمرت سيدتها فجاءت بكورٍ من الماء. فجعلت أشرب وأطيل فى شربى وأنا أسارق النظر إليها حتى طال وقوفى. ثم رددت إليها الكوز ودمت صامتًا لا أتكلم. فقالت سيدتها وما سبب هذا الوقوف. قلت إننى أفتكر بصاحب هذا الدار كيف تقلبت عليه الأيام وقد كان ذا مال جزيل فهل خلف أولادًا. قالت نعم خلف بنتًا يقال لها بدور وقد ورثت جميع أمواله فقلت لها كأنكِ ابنته. قالت نعم. قلت فإنى أرى تغيرًا فى وجهكِ فأخبرينى بسببه فقالت: إن كنت من أهل الأسرار كشفنا لك سرنا فأخبرنى ما هو اسمك. فقلت لها: أنا على بن منصور الخليعى نديم أمير المؤمنين هارون الرشيد. فلما سمعت اسمى نزلت من على كرسيها وسلمت علىّ وقالت مرحبًا بك يا ابن منصور الآن أخبرك بحالى وأستأمنك على سرى أنا عاشقة مفارقة. فقلت لها: يا سيدتى أنت مليحة وما تعشقين إلا كل مليح فمن الذى تعشقينه. قالت: أعشق جبير بن عمير الشيبانى أمير بنى شيبان وقد وصفت لى شابًا لم يكن بالبصرة أحسن منه. فقلت لها: يا سيدتى هل جرى بينكما مواصلة أو مراسلة. قالت نعم إلا أنه عشقنا باللسان لا بالقلب والجنان. فقلت لها يا سيدتى وما سبب الفراق بينكما. قالت سببه أنى كنت يومًا جالسة وجاريتى هذه تسرح شعرى فلما فرغت جدلت ذوائبى فأعجبها حسنى وجمالى فطأطأت على وقبلت خدّى. وكان فى ذلك الوقت داخلاً على غفلة فرأى ذلك وعاد من وقته مغضبًا عازمًا على دوام البين وأنشد هذين البيتين:

إذا كان لى فيمن أحب مشارك ... تركت الذى أهوى وعشت وحيدا
فلا خير فى المعشوق إن كان فى الهوى ... لغير الذى يرضى المحب مريدا

ومن حين ولى معرضًا إلى الآن لم يأتنا منه كتاب يا ابن منصور فقلت لها فما تريدين. قالت أريد أن أرسل إليه معك كتابًا. فقلت لها افعلى ما بدا لك فكتبت إليه هذه الأبيات:

حبيبى ما هذا التباعد والقلى ... فأين التغاضى بيننا والتعطفُ
وما لك بالهجران عنى معرضًا ... فما وجهك الوجه الذى كنت أعرف
نعم نقل الواشون عنى باطلاً ... فملت لما قالوا فزادوا وأسرفوا

فإن تكُ قد صدقتهم فى حديثهم فحاشاك من هذا ورأيك أعرف
بعيشك قل لى ما الذى قد سمعته فإنك تدرى ما يقال وتنصف
فإن كان قولاً صح أنى قلته فللقول تأويلٌ وللقول أحرف
وهب أنه قولٌ من الله منزلٌ فقد بدَّل التوراة قومٌ وحرَّفوا
وبالزور كم قد قيل فى الناس قبلنا فها عند يعقوب تلوّم يوسف
وها أنا والواشى وأنت جميعنا يكون لنا يومٌ عظيمٌ وموقف

ثم ختمت الكتاب وناولتنى إياه فأخذته ومضيت إلى دار جبير الشيبانى فوجدته فى الصيد فجلست أنتظره فبينما أنا جالس وإذا به قد أقبل من الصيد. فلما رأيته على فرسه ذهل عقلى من حسنه وجماله فالتفت فرآنى جالسًا بباب داره فنزل عن جواده وعانقنى وسلم علىّ ثم دخل بى إلى داره وسألنى عن حاجتى. فأخرجت إليه الكتاب.

فلما قرأ ما فيه مزقه ورماه فى الأرض وقال لى: يا ابن منصور مهما كان لك من الحوائج قضيناه إلا هذه الحاجة التى أتيت من أجلها فذهبت حزينًا إلى كاتبة السطور وأعلمتها بما جرى أولاً وآخراً. فزاد منها الحزن والقلق ورفعت طرفها إلى السماء وقالت: يا إلهى كما أبليتنى بمحبة جبير بن عمير تبليه بمحبتى وتنقل إليه ما يلقاه فؤادى. ثم إنى عدت إلى حبيبها جبير فوجدت داره قد تهدمت بأسرها ولم أجد على بابه غلامًا فظننته مات فحزنتِ عليه. وبينما أنا أبكى إذا بعبدٍ أسود خرج إلىّ من الدار وسألنى عن هذا البكاء. فقلت له السبب. فقال إن الذى ذكرته حى بحمد الله ولكنه قد بلى بحب غادة حسناء تدعى بدور وهو من أجلها كطيف الخيال. فقلت استأذن لى عليه. فدخل الدار مستأذنًا ثم عاد إلىّ آذنًا فدخلت عليه فوجدته كالحجر الطريح فناديت مراراً حتى انتبه فقال لى: مرحبًا يا أبا منصور. فقلت له يا سيدى ألك بى حاجة. قال نعم أريد أن أكتب لها ورقة وأرسلها معك إليها ثم كتب هذه الأبيات:

سألتكم بالله يا سادتى مهلاً علىّ فإن الحب لم يبقِ لى عقلا
تمكن منى حبكم وهواكم فألبسنى سقمًا وأورثنى ذلا
لقد كنت قبل اليوم أستصغر الهوى وأحسبه يا سادتى هينًا سهلا
فلما أرانى الحب أمواج بحره رجعت لحكم الله أعذر من يبلى

فإن شئتم أن ترحمونى بوصلكم وإن شئتم قتلى فلا تنسوا الفضلا

فأخذت الكتاب ومضيت به إلى دار السيدة بدور فلما رأتنى سلمت علىّ وأخذت الكتاب فاطلعت عليه ثم تغرغرت عيناها بالدموع وكتبت إليه هذه الأبيات:

إلى كم ذا الدلال وذا التجنى شفيت وحقك الحساد منى
لعلى قد أسأت ولست أدرى فقل لى ما الذى بلغت عنى
مرادى لو وضعتك يا حبيبى مكان النوم من عينى وجفنى
شربت كؤوس حبك مترعات فإن ترنى سكرت فلا تلمنى

فأخذت منها تلك الأبيات وقلت لها يا سيدتى إنها لرقعة تداوى العليل وتشفى الغليل. ثم أخذت الكتاب وخرجت. فنادتنى بعد الخروج وقالت لى: يا بن منصور قل له إنها فى هذه الليلة ضيفك. ففرحت أنا بذلك فرحًا شديداً ومضيت بالكتاب إلى جبير بن عمير. فلما دخلت عليه وجدت عينه شاخصة إلى الباب ينتظر الجواب. فلما ناولته الورقة فتحها وقرأها وفهم معناها فصاح صيحة عظيمة ووقع مغشيًا عليه. فلما أفاق قال: يا بن منصور هل كتبت هذه الرقعة بيدها ولمستها أناملها. قلت يا سيدى وهل يكتب الناس بغير الأنامل. فما كدت أتم الكلام إلا وقد سمعنا لها وقع أقدام فى الدهليز. فقام على أقدامه كمن لم يكن به ألمٌ قط واعتنقا معًا مدة طويلة وعادا إلى سابق الوداد.

* * *

الوزير والجارية

رأى وزير من الوزراء جارية حسناء تخطر فى خفيف الثياب فهاج منه لاعج الغرام وأنشد:

تبدت فهذا البدر من كلف بها وحقك مثلى فى دجى الليل حائرُ
وماست فشق الغصن غيظًا ثيابه ألست ترى أوراقه تتناثر

فسمعه أحد الأدباء فقال:

وفاحت فألقى العود فى النار نفسه كذا نقلت عنه الحديث المجامرُ
وقالت فغار الدرّ واصفر لونه كذلك ما زالت تغار الضرائر